الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

كلية الشريعة والاقتصاد

مخبر البحث في الدراسات الشرعية

الندوة الوطنية حول: "حماية حقوق الأقليات المسلمة في ضوء التشريعات الدولية ومواثيق المشترك الإنساني"، بمناسبة اليوم العالمي "للعيش معا بسلام"، المنظمة من طرف الكلية بالتنسيق مع مخبر الدراسات الشرعية، والمنعقدة يوم الثلاثاء 26 شوال 1444هـ الموافق 26 ماي 2023م.

تصنيف قيم المشترك الإنساني وتأصيلها في ضوء نصوص الشريعة

قيمة الحرية أنموذجا

Classification of common human values and rooting them in the light of Sharia texts

The value of freedom as a model

د. عبد الرحمن خلفة

أستاذ محاضر أ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة

ملخص:

تتناول هذه المداخلة موضوع ' تصنيف قيم المشترك الإنساني وتأصيلها في ضوء نصوص الشريعة *قيمة الحرية أنموذجا*، وذلك للإجابة عن إشكالية رئيسية تمحور حول تساؤل جوهري فحواه؛ ما هي معايير تصنيف قيم المشترك الإنساني وما مدى وجود أصول لكل قيمة في نصوص الشريعة وعلاقتها بباقي الشرائع السماوية والوضعية؟ مستهدفين من وراء ذلك إبراز توافق الشرع الإسلامي مع الفطر السليم والعقول السوية في حصر وتأصيل قيم المشترك الإنساني، وقبول الإسلام والمسلمين للعيش مع غيرهم في أمن وسلام ضمن قيم المشترك الإنساني، متوسلين بمناهج الاستقراء والتحليل والمقارنة، بنظرة نقدية عميقة. وقد قسمنا المداخلة إلى مبحث تمهيدي نخصصه للتعريف بالمشترك الإنساني، ومبحثين رئيسيين؛ نخصص المبحث الأول منهما لمعايير تصنيف وحصر قيم المشترك الإنساني وتأصيلها، ونخصص المبحث الثاني لدراسة وتأصيل قيمة الحرية أنموذجا، ثم نختم البحث بخاتمة لأهم نتائجه.

summary

deal with this intervention. Topic 'Classifying the values of the human common and rooting them in the light of Sharia texts *the value of freedom as a model*', This is to answer a major problem that revolves

around a fundamental question. What are the criteria for classifying the values of the human common, and the extent to which there are assets for each value in the texts of Sharia and its relationship to the rest of the heavenly and man-made laws? Aiming from behind this is to highlight the compatibility of Islamic law with sound instincts and normal minds in limiting the foundations of the values of the human common, and the acceptance of Islam and Muslims to live with others in security and peace within the values of the human common. Using methods of extrapolation, analysis and comparison, with a deep critical view. We have divided the intervention into an introductory topic that we dedicate to defining the human participant. two main sections; We devote the first topic of them to the criteria for classification and inventory of human common values and rooting them, and the second section is devoted to studying and rooting the value of freedom as a model, and then we conclude the research with a conclusion to its most important results.

مقدمة:

إن الإنسانية مهما اختلفت في عقائدها وشرائعها وفلسفاتها ومذاهبها ونظرياتها في الوجود والحياة، تجمع بينها جملة من القيم والمصالح التي تلبي بها حاجاتها الفردية والجماعية، البيولوجية والثقافية، المادية والأدبية، النفسية والاجتماعية، العمرانية والحضارية، الصحية والفكرية، الدينية والدنيوية، وهذه القيم والمصالح تجد لها أصلا مؤسسا أو حافظا في الكثير من شرائع وثقافات مختلف الأمم على تفاوت فيما بينها، حيث تجد فيها بحكم الحاجة والضرورة وسيلة للسلم والعيش المشترك في أمن ووئام.

ولئن عد البعض مقومات وقيم المشترك الإنساني مقومات فطرية؛ فإن تاريخ البشرية ومقولات مختلف الشرائع والثقافات تبيّن أن بعض القيم فطري بالفعل يولد مع الإنسان جبليا؛ لكن بعضها الآخر مكتسب، يكتسبه الإنسان فور تمدنه، أو فور تلقيه للشرائع السماوية والوضعية؛ مما لا يخالف الفطرة ولا يصادم مخرجات العقل السوي، كما هو الحال في حقوق الإنسان؛ ففيها الحقوق الطبيعية والحقوق المدنية، وفي القيم المشتركة المكتسبة تتفاوت درجات الاهتمام بين مختلف الشرائع.

وهنا نجد أن الشريعة الإسلامية من خلال نصوصها التأسيسية وما انبثق عنها من فقه اجتهادي ومقاصدي، وما دون في ضوئها من وثائق تاريخية أكثر تأسيسا وتأصيلا لقيم المشترك الإنساني؛ لأنها لم تكتف بالتأصيل للمشترك الإنساني على مستوى المقولات النظرية؛ بل نقلته من القوة إلى الفعل؛ فشرعت من الإجراءات والضمانات ما

يضمن وجوده وحفظه، وفي هذه المداخلة سنحاول حصر قيم المشترك الإنساني وتأصيلها؛ في ضوء نصوص الشريعة، من خلال أنموذج تطبيقي، هو قيمة الحرية، وذلك للإجابة عن إشكالية رئيسية تتمحور حول تساؤل جوهري فحواه؛ ما هي معايير تصنيف قيم المشترك الإنساني، وما مدى وجود أصول لكل قيمة في نصوص الشريعة وعلاقتها بباقي الشرائع السماوية والوضعية؟ مستهدفين من وراء ذلك إبراز توافق الشرع الإسلامي مع الفطر السليم والعقول السوية، وقبول الإسلام والمسلمين للعيش مع غيرهم في أمن وسلام ضمن قيم المشترك الإنساني، ومتوسلين بمناهج الاستقراء والتحليل والمقارنة، بنظرة نقدية عميقة. وقد قسمنا المداخلة إلى مبحث تمهيدي نخصصه للتعريف بالمشترك الإنساني، ومبحثين رئيسيين؛ نخصص المبحث الأول منهما لمعايير تصنيف وحصر قيم المشترك الإنساني وتأصيلها، والمبحث الثاني لدراسة وتأصيل قيمة الحرية أنموذجا، ثم نعرض في الخاتمة أهم نتائج البحث.

المبحث التمهيدي: مدخل إلى تحديد ماهية المشترك الإنساني: لقد خضع المشترك الإنساني إلى مجموعة تعريفات متقاربة؛ منها:

(أولا). تعريف الباحث وائل الحارثي: الذي قال: (إن المشترك الإنساني هو: مجموع الأفكار (التصورات، المبادئ، المفاهيم) التي يتفق أو يتوافق ويتواطأ الناس، كلّهم أو جُلّهم إلا ما شذ، على القول بها فطرة، وعقلا، واجتماعا، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات)[1]

نقد التعريف: بيد أن هذا التعرف، جامع غير مانع؛ وذلك لأن جعل الأفكار مشتركا إنسانيا ينافي الحد الحقيقي؛ لأن الأفكار تعد مصدرا لقيم المشترك الإنساني وليست مشتركا إنسانيا في حد ذاتها؛ فقد أثبت تاريخ الأديان والشرائع والمذاهب الفكرية والفلسفية، أن هذه مختلفة باختلاف الأمم والحضارات؛ لكن في ثنايا كل شريعة أو فكرة أو مذهب قيم تشترك بها مع غيرها من الشرائع والأفكار والمذاهب.

كما أن القول بأن ما يترتب على المبادئ والتصورات والقيم من حقوق وواجبات أمور إنسانية مشتركة غير مسلّم به؛ لأن الكثير من الأفكار والمذاهب تتفق في مبدأ ما أو قيمة ما؛ لكنها تختلف حول مقتضياته وما يترتب عليه من التزامات؛ فالعدل مثلا قيمة إنسانية مشتركة؛ لكن مقاربة العدل ومقتضياته في الشريعة الإسلامية مختلف عن مقتضياته في الفلسفة الليبيرالية، ومختلف أيضا عن مقتضياته في الفلسفة الاشتراكية، وهكذا دواليك، ومقتضيات العدل التي طرحها الفكر الفلسفي اليوناني القديم في ظل مجتمع طبقي تختلف عن مقتضيات العدل في نظام يلغي الطبقية ويكرس المساواة.

---

[1]- وائل الحارثي، التأسيس المقاصدي للمشترك الإنساني، (مقال)، قدم خلال الدورة العلمية الثالثة والأخيرة في موضوع «مقاصد القرآن الكريم»، التي نظّمها مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية بمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، بالتعاون مع مركز المقاصد للدراسات والبحوث بالرباط، وشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك بالدار البيضاء، وذلك أيام 12-13-14 شعبان 1438هـ الموافق لـ 9-10-11 مايو 2017، بفندق كنزي بالدار البيضاء، المغربية.، https://al-furqan.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AA% أخر اطلاع: 26 أفريل 2023، الساعة 18.00

(ثانيا). تعريف الباحث محماد بن محمد رفيع: عرفه بقوله إنه: (القيم الإنسانية الموجودة في جوهر كل الأديان والحضارات والمدارس الفكرية، التي تلبّي حاجيات الإنسان الفطرية من حيث هو إنسان، فهي قيم عابرة للخصوصيات الثقافية للأمم)[2]

نقد التعريف: هذا التعريف أيضا لا يخلو من نقد؛ ذلك أن حصر قيم المشترك الإنساني في الحاجيات الفطرية يلغي القيم المكتسبة، مما هو ليس فطريا؛ على غرار ما أفرزته الحضارة الإنسانية في تاريخها من قيم وحقوق مدنية طارئة تواطأت على القول بها؛ لكن الطبيعة والفطرة لم تقل بها؛ لأن الحقوق الطبيعية تكاد تنحصر في الحرية والكرامة والملكية والحق في الحياة والمساواة، بينما الحقوق المدنية تتجاوز ذلك وتتسع لما هو أشمل في الاجتماع والسياسة والاقتصاد وغيرها، مما اتفقت عليه البشرية،

(ثالثا). تعريف الباحث جمال اشطيبة؛ الذي يرى بأن المشترك الإنساني هو: (تلك الصفات الأساسية التي يتقاسمها الناس جميعا بحُكم الأصل الموحد الذي يرجعون إليه؛ والمتمثل في تلك الخلقة التي خُلقوا عليها، والتي تجمع بين الجسد والروح، مما يجعلهم جميعا متحدين في عدد من الخصائص الإنسانية التي لا تتبدل ولا تتغير مهما اختلفت الأوطان والأعراق والأجناس، ومنها تلبية مطالب الروح المتمثلة في الحاجة إلى التدين والعبادة، وكذلك الحاجة إلى تلبية مطالب الجسد من غذاء وإيواء وكساء وغيرها، ومثلها حاجتهم إلى التعارف فيما بينهم، وتبادل المصالح والمنافع التي تتطلبها حياتهم العاجلة والآجلة)[3]

نقد التعريف: هذا التعريف الذي يتصف بالعمومية، أدخل في المشترك الإنساني ما ليس منه؛ وأخرج منه ما هو منه؛ ما جعله الأبعد عن ماهيته؛ ويبدو أن صاحبه أخلط بين المفاهيم؛ مفاهيم المشترك الإنساني التي تتجلى في مجموعة من القيم يتفق حولها البشر ويتواطؤون على القول بها، ويسعون لتحقيقها، وبين الصفات والخصائص، التي وإن شكلت مشتركا من حيث المبدأ بحكم رجوع الناس إليها، إلا أنها ضرورية وليست اختيارية، وما أورده من مجموعة خصائص مكتسبة ليست بالضرورة مشتركا إنسانيا؛ على غرار الحاجة إلى التدين والعبادة؛ فهذا أمر وإن سلّم به المؤمنون من مختلف الأديان فإن الكثير من البشر لا يسلّمون به، ولا يعدونه مشتركا بينهم؛ بل يقولون بالإلحاد، وكذلك الحاجة إلى التعارف وتبادل المصالح، فهذا ليس مشتركا عاما بل من المشتركات الخاصة؛ إذ يمكن لكل طائفة من الناس أن يحدثوه فيما بينهم دون حاجة إلى التعميم.

(رابعا). مفهومنا للمشترك الإنساني: في ضوء ما سبق، وبعد عرض عينة من تعريفات المشترك الإنساني ونقدها؛ نقترح تعريفا إجرائيا قد يكون أشمل؛ فنرى أن المشترك الإنساني هو: (القيم الإنسانية التي أكدتها الشرائع السماوية والوضعية، وجاءت بها، مما توافقت عليه العقول السوية والفطر السليمة، وأفرزته خبرات الأمم وتجاربها في تاريخ

---

[2]- محماد بن محمد رفيع، الدرس المقاصدي وبناء مشترك القيم الإنسانية، (مقال)، كتاب جماعي، تنسيق أحمد صالح الفراك وعبد الباسط محمد المستعين، ركاز للنشر والتوزيع، ط 2021م، ص 7

[3]- جمال اشطيبة، مفهوم المشترك الإنساني وحقيقته-مجلة المشترك الإنساني (مقال)، مجلة المشترك الإنساني، نشر بتاريخ 06/30/ 2022، https://www.almochtarak.com/2022/06/blog-post.html تاريخ الاطلاع: 2023/04/29، بتوقيت: 17:20

الدول وتعاقب الحضارات)، وبهذا التعريف تكون (المشتركات الكبرى محط توافق فطري وديني وقيمي)[4]، ويدخل فيها القيم الجبيلة الفطرية والقيم المكتسبة.

المبحث الأول: معايير تصنيف قيم المشترك الإنساني وحصرها وتأصيلها

إن قيم المشترك الإنساني التي تستمد من جملة مصادر أبرزها خمسة: الفطرة السليمة والعقول السوية والشرائع الدينية والشرائع الوضعية؛ والخبرات البشرية، كثيرة ظاهريا؛ لذلك فهي في حاجة إلى تصنيف حصر وتحديد، وقد حاول الكثير من الباحثين الاشتغال على تصنيفها وتحديدها اعتمادا على مجموعة معايير؛ كل من وجهة نظره، ومن الزاوية التي قاربها بها، والمنطلق الفكري الذي اتكأ عليه؛ ومن خلال استقراء بعض ما كتب بشأن هذه التصنيفات نجد أن أشهر التصنيفات في حقل الفكر الإسلامي ما يأتي:

أولا–التصنيف وفق معيار الوجود والمصالح: حيث يرى الحارثي أن مواطن الاشتراك الإنساني، هي:

- الاشتراك في الخلق والوجود، كما في قوله تعالى:﴿ يا **أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾[**النساء: 1]، وقوله: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ [الأنعام: 98]، وقوله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾]الأعراف: 189]. وقوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾[الزمر: 6].
- الاشتراك في المصالح.
- الاشتراك في القيم والمبادئ الكلية/العليا[5]

ويرى أن المداخل المقاصدية المؤسسة لمشروعية المشترك الإنساني، هي: مدخل عمارة الأرض، ولها مقتضياتها ومستلزماتها، والمدخل الأخلاقي /القيم والأخلاق؛ باعتبار مركزية الأخلاق في الشريعة ومحوريتها في الاعتبار المقاصدي، حتى إنها مثلت غاية الشريعة الكبرى ومقصدها الأول، لحديث (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[6].

نقد التصنيف وفق معيار الوجود والمصالح: لكننا نرى أن هذه التصنيف لا يعكس ماهية المشترك الإنساني وعناصره الذاتية الجوهرية؛ ذلك أن المصالح والقيم والمبادئ العليا شيء نسبي في حاجة إلى تحديد وتأصيل في منظومة الفكر البشري والوحي الإلهي؛ لأن ما قد يراه دين ما أو فكر ما، أنه مصلحة أو قيمة عليا، لن يكون كذلك في نظر دين آخر أو مذهب فكري آخر، ولكي نطلق على قيمة ما أنها مشترك إنساني ينبغي أن تكون محل اتفاق حولها، وحول ماهيتها وحدودها، فإطلاق هذا الاسم دون حصر للقيم المرادة يخدش في صحة التصنيف ومصداقيته، كما أن القول بأن من المشترك الإنساني وحدة المصدر في الخلق والوجود لا يستقيم؛ لأن هذا الأمر معروف بالضرورة منذ القدم ولم يسهم ولن يسهم في تقارب الشعوب وتحالف الحضارات؛ فلا يعني إقرار البشر في أي مكان بوحدة الوجود الإنساني أنهم سيتجهون بموجب ذلك إلى السلم والتعاون؛ لأن هذه الوحدة لا تحول بين الحروب والنزاعات،

---

[4] أحمد الفراك، المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب الأردن، ط 1، 1442هـ/ 2021، ص37

[5]- وائل الحارثي، مرجع سابق.

[6]- وائل الحارثي، المرجع نفسه،

ولا تحد من الخلافات الدينية واللغوية والعرقية، وهذا أمر طبيعي فلم يمنع وحدة مصدر الحيوانات من تقاتلها ونزاعها الدائم وبطش القوي منها بالضعيف، ففي الاجتماعي البشري كما هو في الطبيعة صراع وتدافع دائم، فالقيم ترتبط بالأدبيات وبيس بالماديات.

ثانيا–التصنيف وفق معيار الأولوية: حاول الباحث راغب السرجاني جمع وحصر وتصنيف عناصر المشترك الإنساني وقيمه على أساس أهميتها في سلم الأولويات البشرية، فرأى أنها أربع مجموعات[7]

1– المشترك الإنساني الأسمى: وهو العقيدة[8]

2– المشتركات الإنسانية الأساسية: وقد حصرها في ثمان مشتركات؛ تشمل:

(1). **الاحتياجات الأساسية:** المراد بها: الاحتياجات الأساسية للجسد الإنساني وهي تشمل: الطعام والمياه والسكن والأسرة والأمن والملبس، وهذه الأشياء إن لم يجدها سعى اليها فطريا.

(**2**). **العقل؛** وهو الذي يميز الإنسان على بقية المخلوقات، ومن هذا المنطلق دعا إلى الالتقاء على الأمور التي يقبلها العقل بشكل عام، ولا داعي للتحاور والجدل في الأمور التي لا تقبلها عامة العقول. ويعني بذلك على وجه خاص بعض الأمور العقائديّة والتشريعيّة المقبولة في عرف وعقيدة شعب ما، ولا تقبلها عامَّة عقول البشر، فالأَوْلَى من هذا المنطلق أن نؤخّر الحديث عن هذه الأمور التي لن تقبل إلّا إذا غيّر الآخرون عقيدتهم، فدعوته في مسألة جعل العقل كمشترك إنسانيّ عام هو أن تلتقي الشعوب على الأمور العقليَّة لا على الأمور الروحيَّة، وعلى الأدلَّة والبراهين لا على الانطباعات والغيبيَّات، وهنا يُمكن أن يحدث التواصل والتعارف. والحذر من أن يَحجر أحد على هذا العقل، الذي تميَّز به الإنسان على سائر المخلوقات؛ لأن الحجر عليه يمثّل انتكاسة في البشرية، وضياعا للإنسانيّة، ولا شكّ أنَّ هذا سيقود إلى حروبٍ وصدام.

(**3**).**الأخلاق الأساسيَّة:** وهي من وجهة نظره ثلاثة؛ الصدق، والأمانة، والعدل. وقد برر حصره للأخلاق الأساسية في هذه الثلاث أنها أمور لا يختلف عليه شعبان في الدنيا؛ ومن ثم أعتبرها مشتركًا إنسانيّا عامّا، يمكن أن نلتقي عليه، وأن نتعارف على أساسه، ويُمكن كذلك أن ندرك أنّ التعدّي عليه لا يعني شيئا سوى الصدام. فكل شعوب العالم تقدر هذه الأخلاق وتعظمها حتى لو لم تكن تمارسها؛ فهي لا تتجرأ أن تعلن أنها تكذب او تخون أو تكذب، فهذه الأخلاق مشترك إنساني عام يعظمه كل البشر

(**4**). **حب التملك:** ويأتي حُبُّ التملُّك وهو أمر يجتمع أهل الأرض جميعًا على الاهتمام به واحترامه. وهو مشترك يبدأ من الأيّام الأولى لأيِّ طفلٍ مولود، ويستمرُّ مع الإنسان حتى آخر لحظات حياته إنَّها غريزةٌ عند كلِّ البشر! والتعدّي على ملكيَة الآخر سيُؤَدِّي إلى صدامٍ حتمي؛ ومن ثَمَّ فلا يُمكن أن تقوم علاقة سلامٍ وتعارفٍ بين شعبين تعدَّى أحدهما على الآخر.

---

[7] راغب السرجاني، المشترك الإنساني، نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ط1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 1432هـ/2011م، ص 147

[8] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 147-148.

(**5**). **الكرامة**: وهو مشترك بين كل البشر يعلو عند البعض ويقل عند آخرين تبعا للتربية والثقافة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء 70]، فالتكريم لكل الناس بغض النظر عن دينهم ولونهم وجنسهم ووطنهم، أو الزمان الذي يعيشون فيه، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على حفظ كرامة الأسرى، فالكرامة من أهم خصائص البشر، وقد تعلو عند بعض الشعوب على الطعام والشراب؛ لذلك اهتمَّ العلماء وعقلاء العالم بالحفاظ على كرامة الآخرين، وهذا كان يكفل تعارفًا وثيقًا، وتواصلًا حميمًا.

(**6**).**الحرية**: وهي غريزة في كل إنسان، فهي مطلب إنساني للتحرر من الاستعمار وغيره، وقد جاءت الأديان نكلها لتحرير الإنسان، من العبودية لغيره، وأن تجعل هذه العبودية لله تعالى وحده، بل لا يستطيع أحد أن يدافع عن العبودية أو يبررها أخلاقيا وفكريا، ولو كان من الملاحدة وأتباع الأديان الوضعيَّة ، ولا أن يُقِرَّ بتقييد الحريَّات، والشعب أو الفرد الذي تُقَيَّد حريَّته لا شكَّ أنَّه سيُناضل ويُكافح حتى ينال هذه الحريَّة، ومِنْ ثَمَّ فالعلاقات التي تقوم بين الشعوب على أساس الاستعباد والقهر هي علاقاتٌ فاسدةٌ لا يُمكن أن تستمرَّ، ولن تُورث إلَّا الكراهية والبغضاء.

(**7**). **العلم**: وهو عنده نوعان: علمٌ خاصٌّ وعلمٌ عام.. أمَّا العلم الخاص فهو الذي تهتمُّ به أمَة دون غيرها من الأمم، فهو خاص بها، وليس مشتركا عامّا بين كلِّ الأمم، وهذا العلم هو علم العقيدة والدين في الأساس، وينضمُّ إليه علوم القانون والحقوق والأعراف والتقاليد.. وأمَّا العلم العام فهو العلم الذي يهتمُّ به كلُّ البشر على اختلاف أوطانهم وأعراقهم والزمان الذي عاشوا فيه، وهو العلم الخاصُّ بتعمير الأرض وتمهيد الحياة فيها؛ مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والذرَّة والفضاء، ومثل علوم الصناعة والتجارة والزراعة، فهذه سماها "علما عاما"، وسمَّاها كذلك "ميراث الإنسانيَّة"، وهي علومٌ مرغوبةٌ ومطلوبةٌ عند عامَّة البشر، ولا تستقيم حياةٌ دونها، وهي تتطوَّر تبعًا للمكان والزمان والظروف البيئيَّة والحياتيَّة والاقتصاديَّة وغيرها، ولكنَّها في الوقت نفسه ليس لها وطنٌ معيَّن. إنَّ هذا العلم لَمِنْ أروع وسائل التواصل والتعارف بين الشعوب، وهو ميدانٌ فسيحٌ جدًّا للتلاقي؛ ولا شكَّ أنَّ تعمُّد حرمان أُمَّةٍ من الأمم من هذا العلم يُنذر بحربٍ ضروس؛ لأنَّ هذا العلم هو الذي يبني الأمم، والحرمان منه يعني الانهيار، ولن يقبل شعبٌ بذلك أبدًا، ومِنْ ثَمَّ سيكون الصدام.

(**8**). **العمل**: وهو كذلك غريزةٌ في كلِّ إنسان، والعمل ليس له وطن، تمامًا كمشترك العلم، فالعلم والعمل غير مرتبطَيْنِ أبدًا بحدود دولةٍ أو أُمَّة؛ إنَّما يُمثِّلان في الغالب أشهر الأسباب لانتقال الإنسان من وطنٍ إلى وطنٍ آخر، ولعلَّ هذا الانتقال يكون أحيانًا هجرةً بلا عودة؛ بحثًا عن تعلُّم علمٍ معيَّن، أو بحثًا عن عملٍ أو وظيفةٍ مُعَيَّنة، فهما هنا من أرحب ميادين التواصل بين الشعوب[9].

هذه هي المشتركات الأساسية الثمانية التي حاول هذا الباحث حصرها والدفاع عن إدراجها مشتركا إنسانيا، وقد قال عقب عرضها: (ومن اللطيف أن نذكر هنا أنَّ هذه المشتركات الإنسانيَّة العامَّة هي الثوابت الوحيدة في كلِّ

[9] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 153 وما بعدها.

المشتركات المذكورة في نظريَّتنا، وأنَّ كلَّ المشتركات الأخرى قابلة للتغيير الكامل، وإن كانت إمكانيَّة التغيير وسهولته أو صعوبته تختلف من مشتركٍ إلى آخر)[10].

3- -المشتركات الإنسانية الخاصة:

حيث يرى أنها مشتركات إنسانية موجودة في كلِّ أمة، ويقدرها كل إنسان، ولكنَّها تختلف عن المشتركات الإنسانية العامة في أمرين دفعا به لأن يفرد لها مجموعة خاصّة: أمَّا الأمر الأوَّل: فهو أنَّ البشر يشتركون في أصول هذه المشتركات، ولكنَّهم يختلفون في فروعها؛ بمعنى أنَّ البشر يتّفقون في المشترك كمبدأ، لكنَّهم يختلفون في طريقة تطبيقه، وقال إنه عند حديثه عن المشتركات الإنسانيّة العامّة فإنّه كنان يتكلّم عن مشتركات يتَّفق البشر جميعًا في أصولها وفروعها، ويتفقون في المبدأ الذي بُنِيت عليه، وكذلك في طريقة التطبيق، فالعالم كلُّه لا بُدَّ أن ينعم بالحريَّة والكرامة، ولا بُدَّ أن يُحترم عقله، ولا بُدَّ أن تُتاح له الفرصة لتعلُّم علوم الحياة والمعمار.. وهكذا. أمَّا الفارق الثاني: فهو أنَّ المشتركات الإنسانيَّة العامَّة ضروريَّة وحتميَّة؛ بمعنى أنَّه لا يُمكن بحالٍ أن نعيش دونها، وما دامت نُزِعَت من إنسانٍ فإنَّه لا بُدَّ له أن يصطدم بمَنْ نزعها منه، لأنَّه نزع شيئًا يُهَدِّد حياته، وهي أغلى ما يملك.. أمَّا المشتركات الخاصَّة فهي -على الرغم من أهميَّتها-أقلُّ درجةٍ من المشتركات العامَّة، ويُمكن للإنسان أن يعيش دونها، لكنَّها ستكون حياة تعيسة، وإذا نُزِعتْ من الإنسان فإنَّه سيصطدم مع مَنْ نزعها منه، لكن هذا الصدام سيكون أقلَّ دمويَّة من الصدام على المشتركات الأعلى؛ مثل المشترك الأسمى، أو المشتركات الإنسانيَّة العامَّة. لكنَّ هذين الاختلافين لا يُلغيان أهميَّة المشتركات الخاصَّة في الربط بين شعوب الأرض، لكنَّها ليست كالمشتركات العامَّة تربط كلَّ سكَّان العالم، إنَّما هي تربط عددًا معيَّنًا من الناس، قد يضيق حتى لا يشمل إلَّا شعبين أو ثلاثة، وقد يتَّسع حتى يشمل نصف سكان العالم مثلًا، لكنَّه لا يشمل كلَّ السكَّان أبدًا[11].

ويرى أن المشتركات الخاصَّة لا حصر لها، وقد تشترك عدَّة شعوبٍ في أمورٍ يسيرةٍ جدًّا لكنَّها تكون مؤثرة بالنسبة إليها، وهي مشتركات تتجدّد وتتغيّر وتتطوّر بشكلٍ كبير؛ لذلك قلنا: إنَّ حصرها صعبٌ للغاية، ولذلك فإنَّنا في هذه النظريَّة سنضرب بعض الأمثلة لهذه المشتركات الخاصَّة، التي يجتمع عليها في العادة عدَّة شعوب، فهي تُعتبر في رؤيتي أهم هذه المشتركات الخاصَّة.. وهي تشمل ثمانية مشتركات -كذلك-وهي: الثقافة، والأرض، والعرق، والتاريخ المشترك، واللغة، والعادات والتقاليد، والقانون، والأخلاق السامية. فهي أخلاق الفضل؛ التي يتفضَّل بها الإنسان في تعاملاته، ولكنَّه ليس مجبرًا على التحلِّي بها، ولا تحدث حرب أو صدام عادةً إذا ما تخلَّى عنها أحدٌ، بعكس الأخلاق الأساسيَّة، ولكن هذه الأخلاق السامية تُجَمِّل الحياة، وترفع من مستواها الإنساني، فهي من صور الرقيِّ البشري الرائعة. وكمثال لهذه الأخلاق السامية نجد أخلاق العفو والحلم وكظم الغيظ، ونجد أخلاق الكرم والإيثار، ونجد أخلاق الصبر وقوَّة التحمُّل، ونجد أخلاق الشجاعة والمروءة، وكذلك نجد أخلاق الابتسام والسلام وطلاقة الوجه، وكل هذه أخلاق سامية رائعة لكن ليس كلُّ البشر يفعلونها، وليسوا جميعًا مطالبين بها، لكنَّها أخلاقٌ تُبرز

[10] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 166.

[11] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 166-167.

جوانب إنسانيَّة متميِّزة في البشر. وهناك شعوبٌ في العالم تتميَّز ببعض هذه الأخلاق أو جزءٍ منها، ولا شكَّ أنَّها تجد تقاربًا عظيمًا مع الشعوب التي تُشبهها في هذه الأخلاق[12].

4- "**المشتركات الإنسانيّة الداعمة**": وهي تُشبه المشتركات الإنسانية الخاصة في كون الناس يتَّفقون على أصولها وإن كانوا يختلفون في فروعها، وأنَّها ليست حتميَّة في حياة البشر، ولكنَّها تُحَسِّن من مستوى الحياة وتُسعد الإنسان، وهي-أوّلا- نتاجٌ لِمَا سبق؛ أي أنها نتاج للمشتركات الإنسانيَّة الخاصَّة، وليست موازية لها، وخاصَّةً أنَّها تتشكَّل بوضوحٍ نتيجة الثقافة والعادات والتقاليد، وقبل ذلك نتيجة العقيدة والدين، وثانيًا لأنَّه ليس في المعتاد أن تُقام بسببها صدامات أو حروب، وإن كان هذا يحدث "أحيانًا" بين بعض الشعوب، ولكن غالبًا ما تكون القشّة التي قصمت ظهر البعير، ويكون الصدام حادثًا لا محالة نتيجة حالة احتقان وتوتّر بين شعبين، ثُمَّ يحدث الاختلاف حول أحد هذه المشتركات الداعمة فينتج الصدام[13]. وهذه المشتركات الداعمة كثيرةٌ للغاية، ومتجدِّدةٌ ومتطوِّرة، وسآخذ منها –يقول-ثلاثة أحسبها في المقدِّمة، وأرى أنَّ تجميع الشعوب حولها سيكون أسهل وألطف من كلِّ المشتركات الأخرى.. بل إنَّني لا أُبالغ إن قلتُ: إنَّ "سعادة" البشر بالالتقاء حول هذه المشتركات الداعمة تكون في أوقات كثيرة أكبر بمراحل من التقائهم حول مشتركٍ عامٍّ أو خاص؛ ممَّا يجعل التواصل أمرًا ميسورًا، بل مطلوبًا ومرغوبًا.. وهذه المشتركات الداعمة هي الفنون والرياضة والسياحة. ورأى أنَّ المشتركات الإنسانيَّة الداعمة تسهم بشكلٍ مباشرٍ في تشكيل هويَّة الأوطان والشعوب.. فكما ذكرتُ قبل ذلك أنَّها ما هي إلَّا انعكاس لثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده، هي في الوقت نفسه منضبطة بشكلٍ كبيرٍ بعقائد الشعب ودينه، فهي شديدة الارتباط بالهويَّة؛ ومِنْ ثَمَّ فهي تتشكَّل بهذه الهويَّة وتُعَبِّر عنها[14].

ويخلص إلى القول بأن المشترك الأسمى هو "العقيدة"، وإنَّ الرابط الذي يربط المشتركات الإنسانية العامة هو "الفطرة"، وإنَّ الرابط الذي يربط المشتركات الخاصَّة هو "الهويَّة"، والرابط الذي يربط المشتركات الداعمة هو "الجمال"! حيث يؤكد أن حُبُّ الجمال شيءٌ مزروعٌ في غريزة وفطرة وكيان كلِّ إنسان، وهو يسعى "لتجميل" حياته وتحسينها، ويسعى إلى أمورٍ تُلطِّف عليه الأزمات الكثيرة التي يُعاني منها، ويحتاج إلى شيءٍ "جميل" يفزع إليه كلَّما ازدادت عليه ضغوط الحياة، وحاصرته مشاكلها. والجمال وإن لم يكن ضروريًّا لاستمرار الحياة إلَّا إنَّ الحياة دونه تكون بلا طعم، بل قد لا يستطيع الإنسان حقيقةً أن يُكمل حياته بإيجابيَّة إذا فقد هذا الجمال، وقد يدخل في حالات قلق أو اكتئاب تجعل كلَّ شيءٍ مظلمًا، فالدور الذي يُؤَدِّيه حُبُّ "الجمال" من هذا المنطلق هو دورٌ ريادِيٌّ في حياة البشر؛ ولذلك اجتمعت شعوب العالم عليه.. إنَّنا –يقول – بهذا التصوُّر يُمكن أن نُعَرِّف الهويَّة في ضوء النظريَّة على أنَّها السمة الخاصَّة جدًّا لكلِّ شعبٍ أو قوم، التي تنتج من تفاعل عدَّة أمورٍ بعضها مع البعض، ويأتي على رأس هذه الأمور المشترك الأسمى، وهو العقيدة، ثُمَّ المشتركات الإنسانيَّة الخاصَّة؛ كالثقافة والأرض والعرق والتاريخ واللغة والعادات

---

[12] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 167 وما بعدها.

[13] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 182.

[14] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 182 وما بعدها.

والتقاليد والقانون والأخلاق، ثُمَّ أخيرًا تأتي المشتركات الداعمة كالفن والرياضة والسياحة. وهذه الهويَّة هي الشكل الذي يحفظ لشعبٍ تميُّزَه وانفراده، ويُعطيه ندِّيَّة في التعامل مع غيره، والهوية هي التي تزرع الانتماء في قلوب المواطنين، ودونها تفقد الشعوب الحميَّة في الدفاع عن أوطانها[15].

نقد نظرية التصنيف على أساس الأولوية:

على الرغم من شمولية هذا التصنيف وتشعبه فإننا نرى أنه أخرج المشترك الإنساني كثيرا عن ماهيته، وكاد يجعله مرنا مميعا لا يستوي على سوق، وضلل الطريق بالباحثين والمفكرين عن الغرض الأسمى الذي يرومونه من خلال الدفع باتجاه جمع البشرية على قيم مشتركة تسمى المشترك الإنساني، فليس مقبولا مثلا القول بأن العقيدة هي أسمى مشترك إنساني، والحال أنها محل صراع وصدام، وكفر وإيمان، وجحود ونكران، بين مختلف الأمم والأقوام منذ القدم، فكيف يدعي أنها مشترك ولا تكاد كل أمة تسلّم للأخرى بصحة عقيدتها؛ بل إنها تسفّه معتقداتها، وتحول بينها وبين أبنائها، ولا تقرها في منظومتها الفكرية والقانونية والعقدية.

كما أن محاولة إدراج قيم خاصة بكل شعب ضمن المشترك الإنساني، يعد إقحاما لأمور ليس منها وإن سميت مشتركات داعمة؛ لأن خصوصيتها الثقافية والبيئية والجغرافية واللسانية واللغوية تقصيها من الانضواء تحت مسمى المشترك الإنساني؛ ومن شأن فتح المجال لمثل هكذا إدراجات أن يجر خلفه عشرات، بل مئات من القيم والفنون والعادات، ويحاول إقحامها في المشترك الإنساني، وهي ليست محل اشتراك واتفاق بين البشر، بشهادة القرآن الكريم وتاريخ الحضارات وواقعها؛ فمثلا يؤكد القرآن على اختلاف الألسن، فكيف يدعي هذا الباحث أنها مشترك إنساني؟، وكذلك الفنون والرياضة فإنها متباينة بين الأمم بين رافض ومقيد ومطلق لها.

أما المشتركات الأساسية الثمانية فإن بعضها أيضا محل نظر، ذلك أن منها ما يمكن أن ينضوي في بعض، ومنها ما لا يصلح مشتركا إنسانيا.

فالاحتياجات الأساسية للجسد الإنساني، لا تمثل قيمة إنسانية مشتركة بغض النظر عن الحاجة إليها؛ لأنها أمور مادية جبلية خاضعة للبيئة والزمان والمكان والحال، فهي ضرورية للبشر بغض النظر عن تقاربهم، من عدمه؛ بل كثيرا ما كانت سببا في الحروب والنزاعات المسلحة، فمحاولة الارتقاء بها إلى مصف القيمة الإنسانية المشتركة، قد يذكي مجددا الخلافات؛ لأنه في هذه الحال ستطالب كل أمة بالمساواة في الاستفادة من الحاجات الأساسية للجسد، وهذا مخالف للطبع والشرع؛ لأن الناس؛ أفرادا وأمما متفاوتون فيها، وتحسين الإطار المعيشي يستدعي العمل والكسب والاجتهاد، وشتان بين العاملين والقاعدين، وبين الأمم المتحضرة والأم المتخلفة، فمن سنة الله تعالى في كونه أن لكل إنسان ما سعى، وأن الكد والاجتهاد مطلوبان في دنيا الناس فلا اتكال لأحد على آخر، وكذلك الشأن بالنسبة لحب التملك، فكون البشر يحبون التملك طبعا لا يترتب عليه أن تكون الملكية مشتركا إنسانيا؛ فلكل أمة شرائعها وفلسفاتها في تقييد أو إطلاق أو حظر الحق في الملكية، فبين إطلاق الملكية دون قيود وحظرها بدعوى أنها

[15] راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 185-186.

أول اعتداء وقع في تاريخ البشرية، ومحاولة جعل الملك مشاعا بين البشر تتحرك الشرائع والفلسفات، وبقدر اجتهاد الإنسان في هذه الدنيا، وبقدر ما تبيحه له شريعته يتسع أو يضيق حقه في التملك بغض النظر عن كون هذا يصادف هوى في نفسه أم لا.

علاوة على كون الاحتياجات الأساسية للبشر وحبهم للملكية، أشياء مادية، وليست أدبية، وهي ليست أشياء خاصة بالبشر ومشتركة بينهم فقط؛ بل تتعدى البشر إلى عالم كل الكائنات الحية في البر والبحر، في عالم الإنسان وعالم الحيوان، فما من دابة تدب في الأرض، وما من طائر يطير في السماء، وما من مخلوقات تبحر في الماء، إلا وتشترك مع بعضها ومع الإنسان في احتياجات الجسد، وحب التملك، فكيف تكون هذه مشتركات إنسانية، ناهيك أن تكون قيما؛ لأن القيم أمور أدبية معنوية في أصلها وإن ظهرت بعض مقتضياتها في عالم المادة.

كما أن العقل؛ ليس شيئا جديدا حتى يقال إنه مشترك إنساني؛ فمنذ القدم وهو موجود؛ فقد وجد بوجود آدم عليه السلام، ولكن هذا العقل لم يحل دون التنازع والصراع؛ بل كثيرا ما برر ذلك؛ فهو ليس قيمة في ذاته حتى يدرج ضمن المشتركات؛ فلم يدّع أحد أنه صادر عقل أمة ما أو أهل دين ما، فالمرء كما الأمة حر في عقله وهو مناط تكليفه، فالعقل مجرد مصدر لقيم المشترك الإنساني.

وكذلك العمل، فهو سلوك حضاري وضرورة اجتماعية؛ لكنه ليس قيمة إنسانية مشتركة، فما الذي يقرب الأمم والشعوب أو يباعد بينها إن هي أباحت العمل؛ بل منذ متى حُظر العمل؟ فالعمل حق وواجب منذ القدم، شرعا وعقلا وطبعا واجتماعا وعرفا، فالمطلوب هو ضمان حرية العمل لكل البشر دون عوائق، والأمر نفسه يقال عن العلم؛ فالمطلوب فيه هو حرية العلم والتعلم والبحث العلمي، وإزالة كل معوقات التواصل الحضاري والتثاقف بين الأمم، ونقل العلم والتكنولوجيا؛ فالعلم والعمل يفتقران، ويتوقان إلى قيمة الحرية، ولا يستقلان بكونهما قيمة إنسانية مشتركة في ذاتهما. تصلح القيم التي أدرجها تحت مسمى الأخلاق السامية، لكن ما يعاب عليه هنا حصره لهذه الأخلاق في الصدق والأمانة والعدل، دون غيرها؛ فهذا الحصر مانع غير جامع، لأن ثمة قيما أخرى من الأخلاق السامية تشكل مشتركات إنسانية أساسية باتفاق الشرع والعقل والطبع والاجتماع، فلا مبرر لعدم ذكرها هنا؛ لذلك فإن القيم التي نقره عليها هنا هي: الحرية والكرامة والأمانة والعدل والصدق كما سيأتي.

ثالثا–التصنيف وفق المعيار المقاصدي:

حاول الباحث محماد بن محمد رفيع المسلمين وضع تصنيف للمقاصد باعتماد المعيار المقاصدي الذي رُتبت فيها المصالح إلى مصالح ضرورية ومصالح حاجية ومصالح تحسينية، وقد أفضى به هذا المسلك إلى جعل كل ما تضمنته المصالح الثلاث مشتركا إنسانيا؛ لكنه رأى أن لبعض هذه المشتركات أولوية، فجعلها محور المشتركات، وهي أولوية العدل، وأولية التعارف والتعاون، وأولوية السلم العالمي[16].

[16]- راجع: محماد بن محمد رفيع، مرجع سابق. ص 8 وما بعدها

نقد التصنيف وفق المعيار المقاصدي: إن هذا التصنيف فيه نظر؛ ويبدو أنه يعبر عن مظهر التسرع في التأصيل لكل ما هو وافد وتوطينه في نصوص الشريعة وقواعدها، بمبرر أن الإسلام يتوافق مع كل ما تتطلع إليه البشرية؛ وإلا فإن أي فقيه يدرك أن ما ينضوي تحت المصالح الثلاث أوسع من المشترك الإنساني، وبينهما عموم وخصوص؛ فالمصالح جامعة غير مانعة؛ فليس كل ما انضوى تحتها مشترك إنساني؛ كما أن القيم الثلاث التي أوردها وأعطاها أولوية غير مسلمة؛ فباستثناء العدل والتعاون والسلم، التي تعد قيما مشتركة فإن التعارف ليس كذلك؛ لأن النص الوارد بشأنه ليس أمرا بل مجرد تعليل؛ علاوة على أن التعارف بالمفهوم الذي يقصده يعد غريزة وليس مشتركا.

رابعا–التصنيف بمعيار منظور رؤية العالم في ضوء القرآن الكريم: حاول الباحث رضوان السيد استقراء قيم القرآن الكريم التي تشكل مشتركا إنسانيا عاما، محاولا اتباع منهج ذي ثلاثة أُسس؛ هي: المظلّةُ وهي ''رؤيةُ العالم''، والتجربةُ الإسلاميةُ الوسيطةُ هي المجالُ لاختبار مآلات حوارية النصّ مع النُخَب العالِمة للأمة في التاريخ، وطرائقُ تأمُّل الاتّساق إبستمولوجية وسيمانطيقية بحسب التنوُّع بين النصّ المعطى، وتناجات النُخَب بداخل الجماعة.، وقد أفضى به هذا المنهج إلى أنّ المنظومة القيمية في القرآن، تتركز مصطلحاتُها المفتاحية في ستة مفاهيم: المساوة والكرامة والرحمة والعدالة والتعارُف والخير العام، وحاول التأصيل لكل قيمة من هذه القيم في ضوء منهجه السالف الذكر[17].

نقد التصنيف بمعيار منظور رؤية العالم في ضوء القرآن الكريم: لا شك أن الانطلاق من القرآن الكريم لرؤية العالم في ضوئه وجعل ذلك معيارا لحصر القيم، أمر مستحسن، أقرب إلى الصواب؛ لكن ما قام به الباحث محض اجتهاد منه لفهم رؤية القرآن وليس مقررات قرآنية مباشرة، فنتائجه توفيقية وليست توقيفيا، ولذلك فهي عرضة للنقد، وفي رأيي فإن ما قرره من قيم غير مسلّم؛ ليس لأن القرآن لم يشتمل عليها بل لأن بعضه ليس محل اتفاق بين الأمم، وبعضه أسيء فهم النص المؤسس له.

فما يمكن أن نقره عليه مما ذكر من قيم؛ هي: الكرامة والعدالة فقط لما أوردناه سابقا بشأنها، أما باقي القيم فهي محل نظر في اعتبارها قيما كونية عالمية مشتركة، وذلك لأن المساواة مثلا ليست مقررة بإطلاقها في القرآن الكريم، بل المقرر بإطلاق هو العدل، ولذلك نفى القرآن الكريم في مواضع كثيرة من آياته المساواة بين المسلمين والمجرمين، وبين المؤمنين وغيرهم؛ بل بين المؤمنين أنفسهم في حالات ومواضع، وأكد أنه فضل بعضنا على بعض في الرزق وفي بعض المراتب والحقوق والمسؤوليات الأسرية والاجتماعية.

أما الرحمة، ورغم وهج مدلولها ودلالتها إلى أنها ليست مطلقة؛ فهي حاضرة أكثر بين المؤمنين، قال الله تعالى: ((مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ)) [الفتح 29]، والخلاف في مدى مشروعية ترحم المسلمين على غرهم معروف في كتب الفقه الإسلامي، صحيح أن الله تعالى أرسل رسوله صلى اله عليه وسلم رحمة لعالمين؛ لكن ذلك لمن اتبعه؛ حيث تظهر ثمار الرحمة في الهداية والسعادة في الدارين، وفي بعض مواطن العفو والتسامح، وما استدل به الباحث من آيات تقرر قيمة الرحمة هي محل تقييد؛ من ذلك قوله تعالى:

---

[17]- راجع: رضوان السيد، نظام القيم في القرآن والتجربة الثقافية الإسلامية في زمانين، سلسلة الإسلام والسياق المعاصر، (105)، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، **ص 3 وما بعدها**

((وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)) [الأعراف 156][18]، فهي مقيدة بما بعدها؛ في وقله تعالى: ((فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ)) [الأعراف 156]، ولو قرر الباحث رضوان السيد قيمة التسامح لكان أكثر دقة وتناغما ومقتضيات القرآن الكريم وشريعته السمحة.

أما التعارف؛ فإن الآية المؤسسة له، التي أوردها، وهي قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ)) [الحجرات 13]، لم تأت بالتعارف لتأمر به بل أوردته ليكون علة لجعل الناس شعوبا وقبائل؛ فهذا التقسيم يحفظ للناس أنسابهم وهوياتهم؛ قال الطبري مفسرا الآية: (إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقُربة تقرّبكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم.. وعن مجاهد: لتعارفوا فلان بن فلان)[19] فالتعارف هنا علة وليس معلولا، والمعلول هو تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل.

أما قيمة الخير العام؛ فإنها قيمة تتصف بالعمومية والإجمال، تفتقر إلى بيان يحدد ماهيتها ومكوناتها؛ لأن ما يراه شعب ما أو دين ما أنه خير عام لا يراه بالضرورة شعب آخر أو دين آخر.

خامسا–تصنيفنا لقيم المشترك الإنساني وتأصيلها في ضوء مفاهيم القرآن الكريم: بناء على ما سبق فإني أرى أن القيم التي يمكن أن تشكل مشتركات إنسانية، وتقبل بها الشرائع والعقول والطباع والحضارات، وتشكل 'أفق انتظار' –كما يقال–لمختلف الأمم على اختلاف أديانها ولغاتها وإثنياتها وحضاراتها، ينبغي أن تتوفر فيها جملة شروط؛ منها:

1- أن تكون القيمة محل اتفاق وقبول بين مختلف الشرائع والعقول والطباع والحضارات والأمم
2- أن تكون مستمرة تتخطى التاريخ لتعبر من الماضي والحاضر إلى المستقبل، وكأنها أفق انتظار
3- أن لا تكون خاضعة للتحولات الثقافية والدينية والفلسفية، بمعنى أنها مقبولة من حيث الأصل وإن تباينت الثقافات في بعض شروطها وقيودها.
4- أن تكون واقعية قابلة للتطبيق هادفة لتحقيق التقارب بين الشعوب والأمم، للعيش معا بسلام.
5- أن تكون أدبية معنوية في أصلها وليست مادية؛ ولا ضير بعد ذلك أن تكون لها مقتضيات مادية
6- أن تكون مشتركا إنسانيا خالصا؛ بمعنى أن يشترك فيها البشر دون غيرهم من المخلوقات.
7- ان تكون عالمية عامة وليست من المصالح الخاصة بأفراد أو طوائف أو أمم دون أخرى
8- أن تستوفي ما اشترطه ابن عاشور في المقاصد الشرعية من (الثبوت والظهور والانضباط والاطراد)[20].

---

[18]- راجع: رضوان السيد، مرجع سابق. ص 5 وما بعدها

[19]- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ت، 312/22

[20]- ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون، تونس، دار السلام، القاهرة، ط2، 1428هـ/2007م، ص50،

9- أن لا تكون من المشتركات الدينية فقط؛ لأن هذه المشتركات خاصة وليست عامة؛ مهما اتسعت دائرة المؤمنين بها؛ على غرار المشتركات الدينية بين المؤمنين وأهل الكتاب والصابئين وغيرهم، فهذه المشتركات التي أشار إليها القرآن الكريم ودعا إلى الالتقاء حولها تبقى ذات خصوصية بين الأمم المخاطبة بها، ولا تشمل غيرهم.

وفي ضوء هذه الشروط فإن قيم المشترك الإنساني التي نقررها هي: الحرية والكرامة والأمانة والعدل والتعاون والشورى والإصلاح والتسامح والصدق والسلم؛ وهذه القيم تقترب مما سمي بالحقوق الطبيعية للإنسان، والقيم المشتركة التي قررتها هنا تستوفي كل هذه الشروط، وكل قيمة منها قررتها الطباع السليمة والعقول السوية، وحثت عليها الشرائع السماوية، وكرستها المذاهب الفكرية القديمة والحديثة وتجارب وخبرات الأمم البشرية، وكل قيمة منها تنافي نقيضها، وتنفر منه الطباع والعقول والشرائع، ولا تقره في أي حال، فهي قيم ثابتة مطردة مطلوبة كقواعد كلية آمرة.

وكل ما أدرجناه هنا يجد له أصولا في نصوص الشريعة والفطر السليمة والعقول؛ فقد أدرجنا التعاون لأنه يجد لها منطلقا في قاعدة 'الإنسان مدني بالطبع'، ونصوص شرعية تأمر به، كقوله تعالى: ((وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)) [المائدة 2]، وهو يقتضي أن يتعزز على مستوى التشريعات والتنظيمات الدولية، وتظهر آثاره في الواقع العالمي المعيش، في حالتي السلم والحرب والنزاعات المسلحة، وحالات الكوارث الطبيعية والأوبئة والأمراض ومختلف الأزمات العالمية والنكبات، إذ ينبغي أن يتجلى التعاون بكل صوره من تضامن وتكافل وإغاثة ولجوء إنساني ودعم لوجيستي ومادي ومساعدات، وتكامل بين اقتصاديات الدول، لمجابهة كل أزمات البشرية الصحية والبيئية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وقد أثبتت تاريخ وواقع الأمم أنه لا يمكن لأي أمة أو دولة أن تدعي الاستغناء عن غيرها من الأمم مهما ملكت من قوة مادية وتكنولوجية.

كما أدرجنا العدل، وهو قيمة تشكل منذ القدم 'أساس الملك'، وقد أمرت به نصوص شرعية كثيرة؛ كقوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ)) [المائدة 8] وكشف القرآن الكريم أن العدل عامل من عوامل استقرار الأمم وديمومة الدول، وأن الظلم مقوض للعمران البشري مهلك للأمم، أو مؤذن بخراب العمران بالتعبير الخلدوني؛ وأكد القرآن أن المطلوب إقامة القسط؛ فقال الله تعالى: ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ)) [الحديد 25].

وقد جاء الأمر بالعدل في كتاب الله تعالى؛ للإنسان في أحواله الأربعة؛ مدعيا أو مدعى عليه خصما، أو قاضيا حاكما، أو شاهدا؛ حيث أمر به (عندما يكون المرءُ في موقع المبادر: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..﴾ (النحل: 90)؛ فالعدل هنا يعني التصرف بمبادرةٍ واستقامة. وهو مذكورٌ إلى جانب فضائل مشتقّة أُخرى هي الإحسان وإعطاء الأقرباء. والمفهوم في هذا السياق أنّ الإحسان يتجاوزُ العدلَ أو يعلو عليه باتجاه الرحمة.... وعندما يكونُ المؤمنُ في موقع المخاصمة: ﴿ولا يجر منكم شنئان قومٍ على ألاّ تعدِلوا، اعدلوا هو أقربُ للتقوى﴾ (المائدة: 9). وعندما يكونُ المرءُ في مواقع التحكيم: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو

كان ذا قُربى﴾ (الأنعام: 153)، أو الحكم والقضاء: ﴿إنّ الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (النساء: 57)، أو الفتنة داخل الجماعة: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلِحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلِحوا بينهما بالعدل وأقسِطوا..﴾ (الحجرات: 9)، والمورد نفسه؛ أي المورِد القضائي يردُ مصطلحُ الشهود العدول (سورة النساء: 57، والمائدة: 95، 106، والطلاق: 2).)[21].

وأدجنا قيمة الإصلاح لأنها استوفت ما اشترطناه من شروط، والإصلاح مطلب قديم وعملية فكرية ودينية وسياسية واجتماعية مستمرة؛ فهو مطلب شرعي وإنساني، وقد أمر الله تعالى به، فقال: ((إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ)) [هود 88]، وقال تعالى: ((وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ)) [الأعراف 142]، وكشف القرآن الكريم أن الفساد في الأرض مهدّد للإنسان ومحيطه البيئي والبيولوجي؛ فقال الله تعالى: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)) [الروم 41]، وقال الله تعالى: ((إِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ)) [البقرة 205]، بينما الإصلاح مانع من هلاك الأمم؛ لقوله تعالى: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)) [هود 117]، وقال تعالى: ((وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ)) [الأنبياء 105]، وتقرر شرعا أن (المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساد، فإنه لما كان هو المهيمن على هذا العالم، كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله)[22].

كما أدرجنا الكرامة، وهي قيمة إنسانية مشتركة باتفاق الشرع والطبع وإجماع الأمم ومفكريها عبر العصور، وقد من الله تعالى به على خلقه من بني أدم، فقال الله تعالى: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)) [الإسراء 70].، ومن مقتضيات التكريم أن يعامل كل البشر معاملة إنسانية رفيعة، وأن تحظر كل أساليب الإهانة المادية والأدبية، وأن يحظر التعذيب والتمثيل بالبشر، كما يمنع جعل جسم الإنسان وأعضائه سلعا للاتجار بها، ويحظر ولا يبرر أي نظام عنصري مهما كان، وأن يحظر الاستعمار بكل أشكاله، والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي، وأن لا توصد الأبواب أمام اللاجئين،

أما الأمانة، فهي قيمة فطرية رغم كونها تكليفا؛ لأنها وجدت مع وجود الإنسان وهي دليل قبوله التكليف؛ لقوله تعالى: ((إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً))، [الأحزاب 72]، وقد أضحت واجبة في معاملات الناس بغض النظر عن أديانهم وعرقياتهم وطبقاتهم؛ قال الله تعالى: ((إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا)) [النساء 58]. ومن مقتضياتها أن تفي الأمم

---

[21]- رضوان السيد، مرجع سابق، ص6

[22]- ابن عاشور، مصدر سابق، ص 62.

والدول بكل العهود والمواثيق السياسية والقضائية والاقتصادية وغيرها التي أبرمتها أو صادقت عليها، وتلتزم بالتزاماتها الدولية في حفظ حقوق الإنسان وعدم السعي لتقويض السلم.

كما أدرجنا التسامح الذي يستمد شرعيته من خاصية السماحة اللصيقة بشريعة الإسلام؛ حيث يرى ابن عاشور هنا: أن (السماحة هي سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادّة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى)[23]. فهي السهولة في المخالطة والمعاشرة، وهي لين في الطبع في مظان تكثر في أمثالها الشدة؛ ويعتقد أن السماحة أكمل وصف لاطمئنان النفس، وأعونَ على قبول الهدي والإرشاد؛ لقوله تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍۢ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ))) [آل عمران 159][24]، ويرى أن التسامح إبداء السماحة للمخالفين للمسلمين بالدين، وهو لفظ اصطلح عليه العلماء الباحثون عن الأديان من المتأخرين من أواخر القرن الماضي، أخذا من الحديث (بعثت بالحنيفية السمحة)، فقد صار اللفظ حقيقة عرفية في هذا المعنى، ويرى أن التسامح من خصائص دين الإسلام وهو أشهر مميزاته، إنه من النعم التي أنعم بها على أعدائه وأضداده، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة بقوله تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)) [الأنبياء 107]، فقد أسّس الإسلام للتسامح أسسا راسخة، وعقد له مواثق متينة، وفصل فصلا مبينا بين واجب المسلمين بعضهم مع بعض في تضامنهم وتوادهم من جهة الجامعة الإسلامية التي تجمعهم، وبين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى. وقاعدة هذه الأسس هي القاعدة الفكرية النفسية؛ وتلك هي أن القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جبلة البشر، وأنه من طبع اختلاف المدارك، وتفاوت العقول في الاستقامة، ومتى ما تخلق المرء بهذا المبدأ أصبح ينظر إلى الاختلاف نظره إلى تفكير جبلي تتفاوت فيه المدارك إصابة وخطأ، لا نظره إلى الأمر العدواني المشير للغضب، قال الله تعالى: ((وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)) [هود 118][25]. وبين أهمية التسامح في انتشار الشريعة؛ فقال: (إن للسماحة أثراً في سرعة انتشار الشريعة وطول دوامها، إذ أرانا التاريخ أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامَهم على اتباعها كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة. فإذا بلغ بعض الأديان من الشدّة حداً متجاوزاً لأصل السماحة لحِق أتباعَه العنتُ ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه أو يفرّطوا في معظمه)[26]. ويقتضي التسامح أن يقبل البشر بالتعايش السلمي؛ لاسيما بين الأديان والثقافات.

---

[23]- ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط2، 1426هـ/2007م، ص 213 وما بعدها

[24]- راجع: ابن عاشور، المرجع نفسه، ص 22-23.

[25]- راجع: ابن عاشور، المرجع نفسه، ص 213 وما بعدها

[26]- راجع: ابن عاشور، المرجع نفسه، ص 24.

كما أن الشورى وإن جاء الأمر بها في القرآن الكريم إلا أنها قيمة إنسانية مقبولة ومطلوبة شرعا وطبعا وعقلا واجتماعا؛ وهي تنافي الاستبداد وتقتضي توسيع المشاركة السياسية، وتوسيع الهيئات الأممية لتستوعب أكثر كل الأم وتمكنها من المشاركة في صنع القرار العالمي.

علاوة على السلم الذي يبقى الهدف الأسمى للبشرية لتحقيق التعايش المشترك في وئام، والبشرية مطالبة بالعمل على تحقيق ذلك ووضع البرامج والإجراءات الكفيلة بتحقيقه، والمسلمون مطالبون بالانخراط في أي مسعى نحو السلام العالمي؛ لقوله تعالى: ((إِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا)) [الأنفال 61]؛ لأن البديل عن السلم هو الحرب، فينبغي السعي لحل النزاعات العالمية وتحقيق المصالحات التاريخية.

ولعل أضعف هذه القيم، هي قيمة الصدق؛ ليس لأنه أمر تأباه الشرائع والفطر والعقول؛ بل إنها تؤكد عليه؛ لكن لأن الكثير من الشرائع تبيح الكذب، وهو نقيض الصدق، في أحوال معينة من تاريخ الأمم ومراحل حياتها؛ وذلك مثل حالات الحرب؛ بل تبيح الكذب في بعض حالات السلم حفظا لأمنها الاستراتيجي، السياسي والاقتصادي، وتجد لتبرير الكذب هنا مبررات أخلاقية وسياسية تضفي عليه المشروعية؛ والحال أن المشتركات الإنسانية قيم ثابتة مقبولة في كل عصر ومصر، في حالتي السّلم والحرب؛ بين مختلف الأمم والحضارات والأديان؛ ففي ظل سنة التدافع يغدو الصدق في كل شيء مضرا بالدول والأمم، لكن العبرة هنا بقوة القيمة ومصداقيتها في ذاتها، وقد ناقش ابن القيم قديما هذه الإشكالية؛ أعني رفع التقبيح عن الكذب في بعض الحالات وتقبيح الصدق وخلص إلى ربط ذلك باقتران بعض الحالات بشرط أو مانع ما، أباح ما ذكر؛ لكن الأصل أن الكذب لا يستحسن والصدق لا يقبح مطلقا، ورأى أيضا أن القبيح إنما هو الإعلام به، وفرّق بين الخبر والإخبار، ورأى أن القبح واقع في الأخبار لا في الخبر[27]، ولم يكن ابن القيم في حاجة إلى هذا التبرير الذي لم يكن مسعفا له؛ لأن الخبر في ماهيته عند علماء المنطق وأصول الفقه يعني ('ما يحتمل الصدق والكذب لذاته' ومعنى قولهم: لذاته، أي: بالنظر إلى ذات الخبر دون النظر إلى المخبِر والقرائن التي تحف بالخبر)[28]. وقسم أبو حامد الغزالي الأخبار إلى ثلاثة أقسام: (إِلَى مَا يَجِبُ تَصْدِيقُهُ وَإِلَى مَا يَجِبُ تَكْذِيبُهُ وَإِلَى مَا يَجِبُ التَّوَقُّفُ فِيهِ)[29]؛ فما وجه التفرقة إذن بين الخبر والإخبار عند ابن القيم في الحكم؟ إن محاولة التفريق بينهما في كون الأول مستحسنا دوما والثاني يعتريه القبح والحسن، خروج بالخبر عن ماهيته؛ علاوة على وجود حالات استثنائية في التشريع تبيح الكذب يبررها العقل والعرف، وهي عموما لا تقدح في قيمة الصدق وأهميته أصالة. وقد جعلنا هذه القيمة أهون القيم المشتركة أيضا؛ لأنه ما من أتباع دين أو طائفة في هذا العصر وسائر العصور، إلا وهو يعتقد أن مقولات دين غيره من الأمم والطوائف كاذبة؛ ولذلك فهو يكفر بها، وهنا تكمن

---

[27]– راجع: ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، 69/2.

[28]– عياض بن نامي السلمي، أصُولُ الفِقهِ الذي لا يَسَعُ الفَقِيهَ جَهْلُهُ، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، **ط1، 1426هـ/2005م، ص 105**

[29]–الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1993م، ص 112.

صعوبة ادعاء الصدق ممن تعتقد مسبقا أن مقولاته الدينية والفكرية والسياسية كاذبة؛ لكن سيترتب على إقرار الصدق هنا أن يفتح المجال على مصراعيه للقراءات النقدية للأديان والمعتقدات والفلسفات والمذاهب الفكرية والسياسات والتشريعات، وهذا أمر سيفضي مع الزمن إلى الوصول إلى الحقيقة، والدفع بالبشرية نحو السعادة في الدارين. وتبقى الحرية أهم قيمة إنسانية تواطأت على إقرارها الشرائع والعقول وسعت كل الأمم والحضارات إلى تحقيقها، كما سيأتي.

القيمة	دليلها	نقيضها
الحرية	﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف29]	العبودية
الكرامة	﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء 70]،	الإهانة
الأمانة	﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب 72]	الخيانة
العدل	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَ﴾ [النحل 90]	الظلم
التعاون	﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة 2]	التخاذل
الشورى	﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى 38]	الاستبداد
الإصلاح	﴿إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88]	الفساد
التسامح	﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف 89]	الشدة
الصدق	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]	الكذب
السلم	﴿إِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال 61]	الحرب

المبحث الثاني–قيمة الحرية أنموذجا

لقد عرضنا بعض أصول قيم المشترك الإنساني فيما سبق بشكل موجز، إذ لا يتأتى في هذه الورقة التأصيل بشكل مفصل لكل قيمة من قيم المشترك الإنساني وبيان مقتضياتها؛ لذلك سنكتفي بشرح وتأصيل مفصّل لقيمة الحرية ومقتضياتها، ويمكن التأصيل من خلال نصوص الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة والوثائق الإسلامية، وبعض المواثيق الدولية؛ حيث تعد الحرية ركنا أساسا من أركان حقوق الإنسان الطبيعية، ففي منظور هذه الحقوق، يولد الإنسان حرا بحكم الجبلة والفطرة، فهي ليست قيمة مكتسبة من شريعة أو عرف أو قانون؛ بل إن مختلف الشرائع والأعراف والقوانين تأتي لتأكيدها ووضع ما يكفي لحمايتها من ضمانات وآليات. فهي مشترك إنساني حيث تعطى لجميع البشر بصرف النظر عن أديانهم وألوانهم ولغاتهم وأوطانهم؛ أفرادا وشعوبا؛ فلا يجوز حرمان أي شخص منها من منطلق ديني أو سياسي أو عنصري أو اجتماعي؛ باستثناء ما قد تضعه التشريعات الفقهية والقانونية من قيود آنية على ممارسة هذا الحق دون أن تأتي على أصله بالإلغاء والتقويض.

وقد تطور مفهوم الحرية ومضاداتها في السياق الفكري تاريخيا، وفي مرحلة ما من مراحل تطور هذا الفكر، قابل القرآن الكريم بين لفظ 'الحر' ولفظ ' العبد' في قوله تعالى: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ)) [البقرة 178]؛ وقد درج الفقهاء المسلمون قديما على مقابلة لفظ 'الحرية' بلفظ 'الرق' وكثر ورود هذا اللفظ في مصنفاتهم الفقهية والكلامية، وبينوا الأحكام المترتبة على ذلك؛ لكنهم عرفوا أيضا الحرية بمفهومها العقدي والمدني والسياسي؛ وإن لم يكثروا من استعمالها، وكثيرا ما استعاضوا عنها بمصطلحات أخرى على غرار الاختيار المقابل للجبر، والإرادة المقابلة للإكراه. ولذلك وجدنا لهم تعريفات كثيرة لمثل هذه المصطلحات تقترب من المفهوم المدني الحقوقي للحرية، كما وجدنا لبعضهم تعريفات مباشرة للحرية يعيدا عن كونها مفهوما مقابلا للرق والعبودية.

ففي اصطلاحاتهم نجد تعاريف كثيرة للحرية جمع بعضها الباحث نعمان عبد الرزاق السامرائي، منها: (تعريف جابر بن حيان الكوفي بأنها: 'إرادة تقدمتها روية مع تمييز'. وتعريف أبي حامد الغزالي للحر بأنه: 'من يصدر منه الفعل مع الارادة للفعل على سبيل الاختيار، على العلم بالمراد'. وتعريف الدكتور زكريا ابراهيم لها بأنها: 'تلك الملكة الخاصة التي تميز الكائن الحي الناطق من حيث هو موجود عاقل، يصدر أفعاله عن ارادته هو، لا عن ارادة اخرى غريبة عنه، فالحرية بحسب معناها (الاشتقاقي) هي انعدام القسر الخارجي'. وتعريف محمد فتحي عثمان لها بأنها: 'حق من حقوق الإنسان يحميها القانون' وتعريف الشيخ أبي زهرة محمد بن أحمد للإنسان الحر بأنه: 'هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الانسانية العالية، الذي يعلو بنفسه عن سفاسف الأمور، ويتجه إلى معاليها ويضبط نفسه، فلا تنطلق أهواؤه ولا يكون عبدا لشهوة معينة، بل يكون سيد نفسه، فالحر من يبتدئ بالسيادة على نفسه، ومتى ساد نفسه وانضبطت أهواؤه وأحاسيسه يكون حرا بلا ريب)[30]. وهذا الجمع لتعريف الحرية من العصور القديمة والحديثة يكشف أن الحرية ظلت حاضرة مترددة لفظا ومعنى عند العلماء المسلمين.

وقال ابن عاشور: (الحرية عمل الإنسان ما يقدر على عمله، حسب مشيئته لا يصرفه عن عمله أمر آخر)[31]. ويرى أن الحرية بكلا المعنيين؛ بهذا المعنى وبالمعنى المقابل للرق من الفطرة. وهي مما نشأ عليه البشر، وبها تصرّفوا في أول وجودهم على الأرض حتى حدثت المزاحمة، فحدث التحجير، ويرى أنها خاطر غريزي في النفوس البشرية، فبها نماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل. وبها تنطق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق. فلا يحق أن تسام بقيد إلا قيداً يُرفع به عن صاحبها ضُرٌّ ثابت أو يُجلب به نفعٌ، حيث لا يقبل رضا المضرور أو المنتفع بإلغاء فائدة دفع الضرر وجلب النفع. وذلك حين يكون لغيره معه حظ في ذلك، أو يكون في عقله اختلال يبعثه على التهاون بضرِّ نفسه وضياع منفعتها[32]

---

[30]-راجع هذه التعريفات وغيرها في: السامرائي، نعمان عبد الرزاق، النظام السياسي في الإسلام، ط، 1421هـ/2000م، ص 175

[31]ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، ص، 150.

[32]-ابن عاشور، المرجع نفسه، 152-153.

وير ى بأن الحرية بهذا المعنى الأخير حق للبشر على الجملة، لأن الله لما خلق للإنسان العقل والإرادة وأودع فيه القدرة على العلم فقد أكن فيه حقيقة الحرية وخوله استخدامها بالإذن التكويني المستقر في الخلقة، ورأى أنها تنقسم إلى حرية اعتقاد وحرية تفكير وحرية قول وحرية فعل[33]

فالحرية وإن لم نتداول بشكل واسع كمصطلح تاريخيا إلا أنها ظلت حاضرا؛ حيث شكلت مطلب الأفراد والأمم، وحلم الشعوب للانعتاق من كل قيد يكبل إنسانيتها ويشل إراداتها ويحجر عليها حرية الفكر والعمل والتنقل والأبداع، لاسيما في المجال السياسي الذي يعنى بالشأن العام، وهو المجال الذي عادة ما يؤثر على كل مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، ولذلك كانت الحرية قيمة جوهرية من القيم السياسية في القرآن الكريم؛ حيث جاءت الآيات المكية باكرا لتؤسس لهذه القيمة وتدعو المسلمين وغير المسلمين لاحترامها، وهذا ما يدل على سماحة الاسلام ورحمة شريعته وإنسانيتها.

ففي مكة المكرمة أعلن القرآن الكريم للناس كافة: ((وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ))، (الكهف 29)، فليس هناك إكراه على الدين أو قهر للناس لدخوله؛ والآية وإن اقتصرت على الاختيار في شأن، فليس مرد ذلك حصر الحرية فيه؛ بل لأن الإيمان كان وقتئذ جوهر الخلاف والصراع بين الرسول صلى الله عليه والمؤمنين من جهة، والمشركين من جهة ثانية؛ ولذلك فهو يتعدى الشأن العقدي إلى الشأن السياسي، وقد ثبت تاريخيا أن الصراع مع المشركين كان في الكثير من مراحله وجوانبه صراعا سياسيا، فعلى الرغم من زخم مظاهر الحرية الدينية بمكة وقتئذ مقارنة بغيرها من المدائن العالمية؛ إلا أن المشركين رفضوا الإقرار لهذا الدين بالوجود، والإذن لأتباعه بممارسة الحق في العبادة، وما ذاك إلا لما لمسوا فيه من بعد سياسي واجتماعي لا يقتصر على مجرد أداء طقوس تعبدية للإله، وإلا قد كانت لهم مئات الآلهة، وما يضيرهم وجود إله آخر وإن لم يقرهم على ما ادعوه من آلهة !، ولذلك تساءل القرآن الكريم في استفهام تعجبي عن سبب عدم السماح للمسلمين بالعبادة وقد سمح لغيرهم بذلك؛ فقال الله تعالى: ((أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ (9)عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓۚ (10)أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ (11)أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ (12)أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (13)أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (14))) [العلق]، فهؤلاء قوضوا كل دعائم الحرية، ولم يحترموا حتى قاعدة ((لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)) [الكافرون 6]، وإلى جانب هذه الآيات المكرسة للحرية فقد قص القرآن الكريم على المؤمنين قصص الأمم السابقة؛ وبين من خلال تلك القصص سنن الله تعالى في المجتمعات، وبين نماذج من أنظمة حكم مستبدة قمعت الحريات فكان مصيرها الهلاك على غرار نظام فرعون، وأنظمة كانت أقرب إلى الحرية كان مآلها الفوز والنجاة؛ على غرار نظام ملكة سبأ.

فقد أكد القرآن الكريم إذن باكرا –كما رأينا– على مبدأ الحرية وذلك في العهد المكي، فقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف29]، وهي آية أسست لضمانة حقيقية لممارسة هذا

[33]-ابن عاشور، المرجع نفسه، 158 وما بعدها

الحق، ثم تعززت الضمانة بعد ذلك في المرحلة المدنية؛ فقال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة 256]، ولكي يعطي القرآن الكريم للحرية بعدها الإنساني ويؤكد أنها مشترك إنساني بين مختلف الأديان والشرائع، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بدعوة غيره من أهل الكتاب إلى الاجتماع على مبدأ الحرية، فقال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ (64)﴾ [آل عمران]، فالتحرر من عبودية البشر ومن اتخاذ بعضهم بعضا أربابا، وإفراد الله تعالى بالعبودية هي الحرية الطبيعية الحقة؛ لأن كل مخلوق نظير لخلقه، فاتخاذه ربا يعد أمرا طارئا مبتدعا مناف للفطرة ؛ لأن الأصل أن كل مخلوق خلق حرا لا يستعبده إلا خالقه، وهذا أمر يقر بها أصحاب الفطر السوية والعقول السليمة، **لذلك** قال الرازي مفسرا الآية: (.. يَشْهَدُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ وَطَبْعٍ مُسْتَقِيمٍ أَنَّهُ كَلَامٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِنْصَافِ وترك الجدال، وقُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَيْ هَلُمُّوا إِلَى كَلِمَةٍ فِيهَا إِنْصَافٌ مِنْ بَعْضِنَا لِبَعْضٍ، وَلَا مَيْلَ فِيهِ لِأَحَدٍ عَلَى صَاحِبِهِ، وَهِيَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْكَلَامِ.. الْوَاجِبَ فِي الْعُقُولِ تَرْكُ الظُّلْمِ عَلَى النَّفْسِ وَعَلَى الْغَيْرِ.. الْقَوْلُ بِبُطْلَانِ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ [المتضمنة في الآية] كَالْأَمْرِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ يَعْنِي أَظْهِرُوا أَنَّكُمْ عَلَى هذا الدين، لا تَكُونُوا فِي قَيْدِ أَنْ تَحْمِلُوا غَيْرَكُمْ عَلَيْهِ)[34].

وما دعا اليه القرآن الكريم هنا يعد مبادئ وقيم شاملة ذات بعد عقدي وأخلاقي وسياسي، حيث يسلم الكل بالعبودية لله تعالى وحده؛ لأن من يؤمن بالله تعالى فعلا فإنه يخلص له العبودية، ويسلم له بالوحدانية؛ لأنه لا يقبل عقلا ولا طبعا ولا شرعا أن تؤمن بالله تعالى وتعبده، ثم تدعي أن له شريكا من خلقه، أو مما صنعت يداك، فهذا ادعاء ينافي ما تقرر سابقا؛ لأن الإيمان بإله غير الله تعالى يقتضي عبادته هو أيضا، ولا يفرد الله تعالى بالعبادة، وهذه نقطة جوهرية لو التئم حولها أتباع الأديان لضاقت مسافات الخلاف وتقلصت مساحة البعد بينها، لتتفرغ لأداء واجبها الأخلاقي تجاه الإنسانية، ووحدانية الله تعالى ينفي عنه كل شريك وكل ابن أو نظير، وينفي عنه صفات الخلق، وتقتضي أن يوصف بكل صفات الكمال المطلق، كما أن مصدرية التحليل والتحريم تكون لله تعالى وحده، فهو المشرع وهو أعلم بمن خلقه، وأدرى بما يصلح لهم من شرائع وأحكام، فالتسليم بالعبودية يقتضي التسليم بكل هذا. وأن لا يتحذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله تعالى، وذلك يسقط كل جبروت وطغيان واستبداد للبشر فوق هذه الأرض، أو استعباد بعض البشر لبعضهم بحجج لغوية أو إثنية أو دينية أو سياسية أو تاريخية أو عرقية، فلا رب إلا الخالق الواحد، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وبما قدم من عمل حسن، وأبان عن أخلاق سامية، فكل الدعاوى التي تتستر تحت بعض المبررات ساقطة بموجب هذه الآية؛ فالإنسان حر فوق هذه الأرض ولا يستعبد إلا من قبل خالقه، وهذا ما كان ينبغي أن يشتغل عليه حوار الأديان وجهود التقارب بينها، فكل دين يبرر الاستبداد

[34]- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، 251/8.

أو يدعي أن في البشر جنسا طاهرا بحكم الخلقة لا بحكم الخُلق، ويبرر الاستعباد والظلم، والقهر والإبادة الجماعية، ويبرر مصادرة حريات الشعوب والأفراد، أو يضع رجاله أنفسهم في مرتبة اعلى من بين البشر، أو يدعي بأحقيتهم في التحليل والتحريم أو أحقية التشريع فيما اختص به الله تعالى وشرعه لخلقه. هو دين يحتاج لمراجعات شاملة وحفريات دقيقة لتخليصه مما علق به تاريخيا حين اختلط الوحي الإلاهي بالمعطى البشري،

فبعد الهجرة إلى المدينة لم تزد آيات القرآن الكريم الحرية إذن إلا ترسيخا وتأصيلا؛ لأنها من القواعد الكلية الآمرة؛ فجاءت الآيات تؤكد مجددا على قيمة الحرية، منها قوله تعالى: ((لَا إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ)) (البقرة 256)، فالآية تنفي كل إكراه يمارس على الإنسان لدفعه لاعتناق ما ليس مقتنعا به، لأن القناعة أساس عقيدة الإسلام، والقناعة لا تتشكل لدى الإنسان إلا في أجواء الحرية؛ ليضع الشارع الإنسان أمام إرادته واختياره، والاختيار مناط التكليف والمسؤولية، فلو سلب منه الاختيار وأكره على الإيمان؛ فلا معنى لهذا الإيمان الذي لم يلامس بشاشة القلوب ولم يتجسد نفسيا وعقليا. وفي أول دستور بالمدينة المنورة جسد الرسول صلى الله عليه وسلم قيمة الحرية؛ حيث أكد على جملة حريات للطوائف والفئات المشكلة لمجتمع المدينة؛ على غرار الحرية الدينية، فجاء فيها: (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته)[35] إلى جانب حريات أخرى متضمنة في هذه الوثيقة التاريخية؛ بل إن القرآن الكريم أعطى لليهود والمسيحيين حرية اختيار الحاكم في شؤونهم الشخصية وتشريعاتهم الجنائية، فإن شاءوا حكموا لأنفسهم بأنفسهم وإن شاءوا تحاكموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ((فَإِن جَاءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ)) [المائدة 42].

وقد بين القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تكون دعوته إلى الله تعالى؛ فقال تعالى: ((ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ)) (سورة النحل. 125). بل إنه يبين لرسول الله أنه لا سبيل إلى الحجر على حرية الناس في التفكير أو في الاعتقاد، وأن الأمر في ذلك إليهم يختار كل منهم لنفسه ما يره دون قيد أو إكراه: ((وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ)) (سورة يونس. 99). بل إن القرآن ليقرر في ذلك تقرير الحقيقة الواقعة: ((وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ)) (سورة يوسف. 103). وبين له أن سبيل التعامل مع هؤلاء الذين لا يؤمنون، هو ما أمر الله تعالى به الرسول صلى الله عليه وسلم: ((قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)) [النمل. 64])[36].

---

[35]- راجع بنود الصحيفة في: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق جمال ثابت، محمد محمود، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة ط/1424هـ/2004م، 2/368-370

[36]- العوا، محمد سليم، لحريّة في أصولها الإسلاميّة (مقال)، مركز الإنماء للدراسات والبحوث والتدريب، https://wefaqdev.net/art1148.html، النشر: 2014/08/17م، الاطلاع: 2022/12/24، 14.20.

ومن مقتضيات قيمة الحرية في الإسلام احترام تقرير مصير الشعوب، و قبول الدولة المسلمة بكل مكوناتها الدينية واللغوية والعرقية، وقبول السلطة وشعب بسنن الله تعالى في الاجتماع، وهي كثيرة استخلصها الكثير من العلماء[37] ، ويمكن رصد بعض سنن لها علاقة مباشرة بقيمة الحرية، وهي: احترام سنة الاختلاف؛ فلا يصادر أي رأي داخل الجماعة المؤمن؛ بل يعبر كل عن رأيه بحرية تامة، قال الله تعالى: (((وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ... »، [هود: 118]، وسنة التداول فلا يحتكر أحد السلطة أو أي منصب؛ قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران 26]، وهي على صلة وطيدة بسنة الأجل؛ وقبول المجادلة بالحسنى؛ لأنها الكفيلة بتشكيل رأي عام مسهم في الشأن العام، وتفسح المجال للنقاش السياسي الحر الذي يبتغي مصلحة الأمة، دون عنف أو قهر، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾]النحل:125]، وكذا سنة التدافع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾]البقرة: 251]، وفي الميدان السياسي تعد نتيجة حتمية لوجود اختلاف في الآراء والرؤى والبرامج السياسية داخل الدولة المسلمة، فيكون التدافع السلمي بين البرنامج وأحزابها ورجالها، كل يدافع عن رأيه واختياره في غير ما عنف؛ لأن العنف يؤدي إلى تلاشي الأمن وغياب السلم الاجتماعي، لاسيما في هذا العصر حيث مكنت الأنظمة المعاصرة أي حزب أو شعب من تغيير نظام حكمه، دونما حاجة إلى القوة والسلاح، فطريقة الانتخاب واحترام التداول كفيلة بتوفير ذلك، وهي أشبه بالتدافع الثقافي والحضاري، كما يمكن استثمار سنة التدافع من قبل الدولة المسلمة في علاقاتها الخارجية عند اختلال موازين القوى لغير صالحها.[38]

---

[37]- راجع بعض هذه السنن وغيرها في: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، نهضة مصر، د.ت، ص 118.

[38]- في هذا يقول الشيخ محمد الغزالي: (هذه القضية، لا شك أنها تقع ضمن مساحة ما أسميناه: سنة التدافع.. لكن هناك هامش آخر في سنة التدافع، أرى بأنه -أحيانا-في حالة ضعف المسلمين وعدم قدرتهم على المواجهة الكاملة . تكون هناك قوى عالمية متناقضة تحمل العداوة للمسلمين، لكنها في الوقت نفسه تحمل من التناقض فيما بينها ما يحملها على الاقتتال والمواجهة، فإذا أحسن المسلمون التحرك الحكيم من خلال الظروف المتاحة مستثمرين التناقض القائم، يمكن أن نقول: بأنهم أفادوا من سنة المدافعة التي وردت في القرآن وأدركوا أبعادها.. فنعيم بن مسعود مثلا، أحسن التحرك بين بنى قريظة وقريش في غزوة الخندق، على الرغم من حصار المسلمين وضعفهم المادي..، لو استقرأنا ذلك نلمح بأن الله سبحانه وتعالى لم يسلط على البشرية ظالما واحدا إلا كان هناك ظالم يواجهه ويدافعه.. فمن خلال الخصومات العالمية، والظلم العالمي، والمواجهات العالمية، يمكن أن تفسح فرج إذا أحسنا التعامل بما أسميناه: سنة المدافعة.. هذا معنى جديد، ومعنى صحيح، ويستطيع الإسلاميون في هذا العصر أن يستغلوا ما بين الجهات المتصارعة في العالم من فروق ومن نقائض اجتماعية وسياسية؛ لكى يظفروا بحق الحياة أولا، ولكى يعرضوا أيضا ما عندهم، ويعرف ما فيه من خير.. وأخيرا، لكى يستطيعوا أن يستردوا ما فقدوا من مساحة مكانية في الاستعمار، وما أصابهم من نكبات اجتماعية وسياسية كثيرة في الهزائم التي لحقت بهم، ويستعيدوا ما فاتهم.. ممكن من خلال هذا كله.. لكن هذا يحتاج فعلا إلى أن الذى يحسن الاستغلال يجمع بين أمرين: بين الإخلاص العميق للعقيدة والمبدأ، والذكاء العميق أيضا الذى يستطيع به أن يفتق الحيل حتى يصل إلى ما يريد.. وإلا في عصر الأذكياء، لا يستطيع التعامل مع سنة المدافعة أصلا، وإذا لم يكن على هذا القدر من الذكاء..، وأخشى أن أقول إن غيرنا طبق هذا. ولعل اليهود استطاعوا أن يستفيدوا من سنة المدافعة أكثر منا.. نحن الآن في حاجة ماسة لسنة المدافعة.. وليس أمامنا في هذه الظروف إلا الأخذ بسنن المدافعة.. فكيف تحتال لتشق بين الأقوياء طريقا لك؟ يلمح الإنسان أحيانا . كأنموذج تطبيقي معاصر لسنة المدافعة . أن أقلية أو نائبا في برلمان واحد مؤلف من كتلتين، قد يرجح الكفة إذا انضم لأحدهما، ويجعلها تفوز بتشكيل الوزارة، وكأنه هو المتحكم بالتوجه السياسي، بينما هو فرد واحد، لكنه استطاع أن يستفيد من سنن المدافعة، ويفعل ما لا يفعله حزب كبير. الحزب الديمقراطى "المسيحى" فى إيطاليا، لم يحكم إلا فترات قليلة على

وعموما فإن قيمة الحرية التي أسس لها القرآن الكريم تقتضي من الدولة المسلمة احترام حقوق الإنسان وحرياته العامة التي دعت إليها الشرائع السماوية والأرضية؛ لاسيما في هذا العصر حيث عمت شرعة حقوق الإنسان، وفي هذه الشرعة تأكيد على الحريات الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والمدنية وغيرها، وهي كلها تجد لها أصولا في النصوص الشرعية، ولهذا لم يجد العلماء المسلمون المعاصرون عناء في تأصيل هذه الشرعة في الإعلانات والبيانات التي أصدروها تباعا والتي تعنى بحقوق الإنسان. فالحرية مشترك إنساني حيث تعطى لجميع البشر بصرف النظر عن أديانهم وألوانه ولغاتهم وأوطانهم؛ فلا يجوز حرمان أي شخص منها من منطلق ديني أو سياسي أو عنصري أو اجتماعي؛ باستثناء ما قد تضعه التشريعات الفقهية والقانونية من قيود آنية على ممارسة هذا الحق دون أن تأتي على أصله بالإلغاء والتقويض.

خاتمة:

بعد معالجتنا لموضع قيم المشترك الإنساني ومحاولة تأصيلها في نصوص الشريعة الإسلامية ومقاصدها، والكشف عن معايير تصنيفها وحصرها بين مختلف المدارس الفقهية ومحاولة تأصيلها، وإخضاع قيمة الحرية للدراسة والتحليل والتأصيل كأنموذج لتلك القيم، توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- يمكن تعريف المشترك الإنساني بأنه: (القيم الإنسانية التي أكدتها الشرائع السماوية والوضعية، وجاءت بها، مما توافقت عليه العقول السوية والفطر السليمة، وأفرزتها خبرات الأمم وتجاربها في تاريخ الدول وتعاقب الحضارات).

2- اختلفت معايير العلماء في تصنيف قيم المشترك الإنساني، ومنها: التصنيف وفق معيار الوجود والمصالح، والتصنيف وفق معيار الأولوية في سلم البشرية، والتصنيف وفق المعيار المقاصدي، والتصنيف بمعيار منظور رؤية العالم في ضوء القرآن الكريم، والتصنيف من منظور مفاهيم القرآن الكريم

3- بعد الاستقراء والتحليل والنقد لمختلف تصنيفات العلماء لقيم المشترك الإنساني، ومعايير كل تصنيف، وسلوك منهج التصنيف من منظور مفاهيم القرآن الكريم؛ خلصت إلى أن القيم؛ هي: الحرية، والكرامة، والعدل، والشورى، والأمانة، والتعاون، والإصلاح، والتسامح، والصدق، والسلم، وهي مستوفية لما أوردناه من شروط لجعل قيمة ما مشتركا إنسانية.

4- إن قيم المشترك الإنساني السالفة الذكر، أجمعت عليها الشرائع السماوية والوضعية وتقبلتها الفطر السليمة والعقول السوية، وأجمعت عليها تجارب الأمم وخبراتها الحضارية، ولكل قيمة منها مقتضياتها يتعين على البشرية الالتزام بها

5- إن الحقوق الطبيعية للإنسان تشكل في مجملها قيما إنسانية مشتركة، بشكل مباشر أو غير مباشر؛ على غرار: الحرية والكرامة.

الرغم من الأكثرية، وكان يكسب الحكم حزب صغير، فيه رجل ذكى، كان رئيسا للوزراء قبل سنتين، استطاع أن يؤلف من مجموعة الأحزاب ما وقف به أمام الأكثرية الديمقراطية المسيحية عدة سنينمحمد الغزالي، المرجع نفسه، ص 130-131

6- يرى الكثير من الفقهاء المسلمين أن مقاصد الشريعة ومراتب مصالحها، ومقاصد القرآن الكريم، تحتوي قيم المشترك الإنساني، وتؤسس لها، وتحفظها؛ وجودا وعدما.

7- تمثل الحرية أهم قيمة من قيم المشترك الإنساني، لأنها أصل كل القيم ومناط التكليف بها، وبفقدانها تفقد سائر القيم قيمتها ومبر وجودها، وقد تعززت بمجيء الإسلام، حيث ارتفعت إلى مستوى القاعدة الكلية الآمرة، وهي شاملة للحريات الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، ومن مقتضياتها احترم سنن الله تعالى في الاجتماع وتجريم كل استبداد وقهر واستعمار، واحترام حقوق الإنسان وحرياته العامة.

قائمة المصادر والمراجع

1- أحمد الفراك، المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب الأردن، ط 1، 1442هـ/ 2021،

2- جمال اشطيبة، مفهوم المشترك الإنساني وحقيقته-مجلة المشترك الإنساني (مقال)، مجلة المشترك الإنساني، نشر بتاريخ 30 يونيو 2022م، https://www.almochtarak.com/2022/06/blog-post.html تاريخ آخر اطلاع: 2023/04/29م، الساعة: 17:20

3- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ

4- راغب السرجاني، المشترك الإنساني، نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، ط1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 1432هـ/2011م

5- رضوان السيد، نظام القيم في القرآن والتجربة الثقافية الإسلامية في زمانين، سلسلة الإسلام والسياق المعاصر، (105)، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية

6- السامرائي، نعمان عبد الرزاق، النظام السياسي في الإسلام، ط، 1421هـ/2000م.

7- السلمي، عياض بن نامي، أصُولُ الِفقهِ الذي لا يَسَعُ الفَقِيهَ جَهُلهُ، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ/2005م

8- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، د.ت

9- ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط2، 1426هـ/2007م

10- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 90/21، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984م

11- ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون، تونس، دار السلام، القاهرة، ط2، 1428هـ/2007م.

12- العوا، محمد سليم، لحريّة في أصولها الإسلاميّة (مقال)، مركز الإنماء للدراسات والبحوث والتدريب، https://wefaqdev.net/art1148.html، تاريخ النشر: 2014/08/17م، الاطلاع: 2022/12/24، 14.20.

13- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1993م،

14- الغزالي، محمد كيف نتعامل مع القرآن الكريم، نهضة مصر. د.ت

15- ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، 2 2/66-67،

16- محماد بن محمد رفيع، الدرس المقاصدي وبناء مشترك القيم الإنسانية، (مقال)، كتاب جماعي، تنسيق أحمد صالح الفراك وعبد الباسط محمد المستعين، ركاز للنشر والتوزيع، ط 2021م.

17- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق جمال ثابت، محمد محمود، سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة ط/1424هـ/2004م

18- وائل الحارثي، التأسيس المقاصدي للمشترك الإنساني، (مقال)، قدم خلال الدورة العلمية الثالثة والأخيرة في موضوع «مقاصد القرآن الكريم»، التي نظّمها مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية بمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، بالتعاون مع مركز المقاصد للدراسات والبحوث بالرباط، وشعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك بالدار البيضاء، وذلك أيام 12-13-14 شعبان 1438هـ الموافق لـ 9-10-11 مايو 2017، بفندق كنزي بالدار البيضاء، بالمملكة المغربية.، https://al-furqan.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%AA%